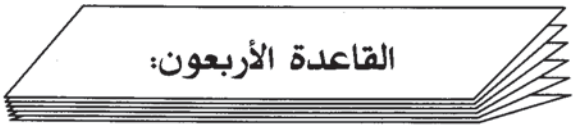

في دلالة القرآن على أصول الطب.

أصول الطب ثلاثة: حفظ الصحة باستعمال الأمور النافعة، والحِمْيَة عن الأمور الضارّة، ودفع ما عرض للبدن من المؤذيات. ومسائل الطب كلها تدور على هذه القواعد، وقد نبّه القرآن عليها في قوله تعالى في حفظ الصحة ودفع المؤذي: ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟﴾ [الأعراف: ٣١]؛ فأمر بالأكل والشرب اللذين لا تستقيم الأبدان إلا بهما، وأطلق ذلك ليدلّ على أن المأكول والمشروب بحسب ما يلائم الإنسان وينفعه في كل وقت وحال، ونهى عن الإسراف في ذلك: إما زيادة في كثرة المأكولات والمشروبات، وإما بالتخليط. وهذا حمية عن كل ما يؤذي الإنسان، فإذا كان القوت الضروري من الطعام والشراب إذا صار بحالة يتأذّى منه البدن ويتضرّر مُنِع منه، فكيف بغيره؟! وكذلك أباح الله للمريض التيمم إذا كان استعمال الماء يضرُّه؛ حمية له عن المضرّات كلها، وأباح للمُحْرم الذي به أذى من رأسه أن يحلقه ويفدي، وهذا من باب الاستفراغ، وإزالة ما يؤذي البدن، فكيف بما ضرره أكثر من هذا؟ ونهى عن الإلقاء باليد إلى التهلكة، فيدخل في ذلك استعمال كل ما يتضرر به الإنسان من الأغذية والأدوية، ودفع ما يضر بمدافعة الذي لم يقع والتحرُّز عنه، وبمعالجة الحادث بالطريقة الطبية النافعة، وكذلك ما ذكره الله في كتابه من الأعمال كلها؛ كالجهاد، والصلاة،

والصوم، والحج، وبقية الأعمال، والإحسان إلى الخلق، فإنها وإن كان المقصود الأعظم منها نيل رضى الله، وقربه، وثوابه، والإحسان إلى عبيده، فإن فيها صحة للأبدان، وتمريناً لها، ورياضة، وراحة للنفس، وفرحاً للقلب، وأسراراً خاصة تحفظ الصحة، وتنميها، وتزيل عنها المؤذيات. وبالجملة، فإن جميع الشرائع ترجع إلى صلاح القلوب، والأرواح، والأخلاق، والأبدان، والأموال، والدنيا والآخرة، والله أعلم.

التعليق

هذه أيضاً قاعدة نافعة، خلاصتها: أن القرآن أرشد إلى أصول الطب الثلاثة، وهي التقيد بما يحفظ الصحة والبدن، والحمية عما يضرّه، وإزالة ما يؤذيه، ذكرها الله سبحانه وتعالى كلها في القرآن: ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟﴾ هذا استعمال ما يحفظ الصحة، ﴿وَلَا تُسْرِفُوٓا۟﴾ هذا الحمية عما يضرّ، أما دفع ما كان ضاراً، فذكر المؤلف ـ رحمه الله ـ، له فدية الأذى: ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ﴾ [البقرة: ١٩٦]، يعني: فليحلقه، ففي هذا إزالة المؤذي. وإذا تمّ للبدن حفظ الصحة، وحمايته مما يضرّه أو يؤذيه، ورفع ما أضرّ به وآذاه؛ تمّت صحته.

❑ ❑ ❑

القاعدة الحادية والأربعون:

يرشد الله عباده في كتابه من جهة العمل إلى: قَصْرِ نظرهم إلى الحالة الحاضرة التي هم فيها، ومن جهة الترغيب فيه والترهيب من ضدّه: إلى ما يترتب عليها من المصالح، ومن جهة النعم: إلى النظر إلى ضدّها.

وهذه القاعدة الجليلة دلَّ عليها القرآن في آيات عديدة، وهي من أعظم ما يدل على حكمة الله، ومن أعظم ما يرقى العاملين إلى خير ديني ودنيوي، فإن العامل إذا كان مشتغلاً بعمله الذي هو وظيفة وقته، فإنْ قصر فكره وظاهره وباطنه عليه نجح وتمَّ بحسب حاله، وإنْ نظر وتشوقت نفسه إلى أعمال أخرى لم يحن وقتها بعد فَتُرت عزيمته، وانحلَّت همَّته، وصار نظره إلى الأعمال الأخرى ينقص من إتقان عمله الحاضر وجمع الهمّة عليه. ثم إذا جاءت وظيفة العمل الآخر جاءه وقد ضعفت همّته، وقلّ نشاطه، وربما كان الثاني متوقفاً على الأول في حصوله أو تكميله؛ فيفوّت الأول والثاني، بخلاف مَن جمع قلبه وقالبه، وصار أكبر همّه القيام بعمله الذي هو وظيفة وقته، فإنه إذا جاء العمل الثاني فإذا هو قد استعدّ له بقوة ونشاط، وتلقاه بشوق، وصار قيامه بالأول معونة على قيامه بالثاني، ومن هذا قوله تعالى مصرِّحاً بهذا المعنى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓاْ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً﴾ [النساء: ٧٧]، فانظر كيف حالهم الأُولى وأمنيتهم

وهم مأمورون بكفِّ الأيدي؛ فلما جاء العمل الثاني ضعفوا كل الضعف عنه. ونظير هذا ما عاتب الله به أهل أُحد في قوله: ﴿وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ [آل عمران: ١٤٣]**، وقد كشف هذا المعنى كل الكشف قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ ٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ أَوِ ٱخْرُجُواْ مِن دِيَٰرِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا﴾** [النساء: ٦٦]**؛ لأن فيه تكميلاً للعمل الأول، وتثبيتاً من الله، وتمرُّناً على العمل الثاني؛ ونظيره قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُواْ بِهِۦ وَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ﴾** [التوبة: ٧٥ ـ ٧٧]**؛ فالله أرشد العباد أن يكونوا أبناء وقتهم، وأن يقوموا بالعمل الحاضر، ووظيفته، ثم إذا جاء العمل الآخر صار وظيفة ذلك الوقت، واجتمعت تلك الهمّة والعزيمة عليه، وصار القيام بالعمل الأول مُعيناً على الثاني، وهذا المعنى في القرآن كثير.**

التعليق

الشقّ الأول من هذه المسألة: أن الإنسان ينبغي له أن يعتني بالعمل الذي بين يديه؛ لأن العمل الذي بين يديك هو وظيفة وقتك. بعض الناس يفرط فيه من وجهين؛ الوجه الأول: أن يتساهل ويتهاون، ويقول: هذه مسألة بسيطة، هذا عمل قليل؛ فيضيع عليه الوقت، فإذا حصره الوقت عجز، وإذا عجز عنه انتقل هذا العمل من وظيفته الزمنية إلى وظيفة العمل الثاني، فضاق عليه، وعجز عن القيام بهما. وعلى هذا قول صاحب الحكمة: «لا تؤخر عمل اليوم

إلى الغد»، وما أكثر ما يظنّ الظان أن هذا العمل يسير وأنه سيخلص منه، ثم يتمادى به الأمر فيعجز، وإذا قابل الإنسان هذا العمل، وقام به بهمّة ونشاط، وبدأ به فوراً، ولم يتوانَ فيه؛ أدركه على سهولة، وأتقنه وأجاده. وهذه تقع في الأعمال اليومية، تقول: هذا يسير، أكتب هذا إن شاء الله بعد قليل؛ فيمضي الوقت ولم تكتبه! لكن إذا عملت استرحت، وجرِّب تجد، وانتهز الفرصة؛ كما قيل: «انتهز الفرصة، إن الفرصة تكون إن لم تنتهزها غصّة».

الشقّ الثاني الذي أشار إليه الشيخ ـ رحمه الله ـ: أن بعض الناس يهون عليه الأمر، يقول: هذا العمل خفيف وأنا أريد عملاً أشدّ!، ويقول بعض الناس: دعونا نقرأ ليلاً ونهاراً، وهذا غير صحيح، هذا ما ينبغي، بل هوِّن على نفسك! لأنك بذلك ترهق نفسك، ولا تتقن العمل، لكن إذا جاء العمل يسيراً، تحمّلته النفس وأتقنته، وانتقلت إلى العمل الثاني وهي قد أجادت العمل الأول، فتلقته بانشراح ونشاط.

فهذان وجهان في هذه المسألة. من الناس مَن يتهاون بالعمل، ويقول: هذا عمل قليل، أُؤخره! فيضيع عليه وقته. ومِنَ الناس مَن يستقل هذا العمل ويريد عملاً أكثر، فإذا ابتلي به عجز عنه! ولهذا قال في الآية التي ذكرها الشيخ ـ رحمه الله ـ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓاْ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُواْ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ [النساء: ٧٧]، كذلك الآية الثانية: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ ٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ أَوِ ٱخْرُجُواْ مِن دِيَٰرِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ

﴿مِّنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا﴾ [النساء: ٦٦]. وانظر إلى عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، حينما قال: «والله لأقومنَّ الليل ما عشت، ولأصومنَّ النهار ما عشت»؛ فدعاه الرسول ﷺ، وسأله: «**أهو الذي قال كذا؟**» قال: نعم! فبدأ النبي عليه الصلاة والسلام يحاططه، وينازله، حتى وصل إلى أن يصوم يوماً ويدع يوماً[1]. فماذا كانت حال عبد الله في آخر عمره؟

شق عليه ذلك، فكان يصوم خمسة عشر يوماً سرداً، ويفطر خمسة عشر يوماً، وقال: ليتني قبلت رخصة النبيّ ﷺ!

وكذلك قراءة كتب العلم؛ يقال: إن الشيخ عبد الله أبا بطين ـ رحمه الله ـ، وكان يلقب (مفتي الديار النجدية)، وكان عالماً جيداً في الفقه، يقول: إنني ما قرأت إلا «الروض المربع في شرح زاد المستقنع»، وهو شرحٌ مختصر، لكنه كان يكرره، ويتأمل فيه، ويأخذ بمنطوقه، ومفهومه، وإشارته، ومع ذلك صار عالماً بحراً في الفقه!

وأما أن يكون الشخص يقفز من غصن إلى غصن، من هذا الكتاب إلى ذاك الكتاب! يوماً يطالع في هذا، ويوماً يطالع في هذا! يذهب عليه الوقت. أحياناً يأتي الإنسان يريد أن يطالع حكم مسألة معينة، فإذا فتح الكتاب إذا هو كالبحر، وإذا السمك أمامه، وقد كان يريد حوتاً معيناً، فجعلت الأسماك تتزارق أمامه، فصار يأخذ هذه، ويأخذ هذه، ويضيع عليه الوقت، ولم يراجع المسألة التي كان

---

(١) أخرجه البخاري في أبواب التهجد، باب ما يكره من ترك قيام الليل لمن كان يقومه (١١٠٢)؛ ومسلم في كتاب الصيام، باب النهي عن صوم الدهر لمن تضرّر به (١١٥٩).

يطلبها! فعلى الإنسان ما دام أنه يريد مسألة معينة أن يبدأ أول ما يبدأ بها، وإذا حصل عنده فضل وقتٍ، فليرجع إلى المسائل الأخرى. لكن في بعض الأحيان، مع شغف الإنسان بالعلم، يقول: هذه مسألة جيدة، أقرأها، وهكذا يذهب عليه الوقت.

ثم شيء آخر أيضاً: أحياناً تمرّ عليه مسألة نادرة الوجود، ولو طلبها في محلّها ما وجدها، ثم في تلك الساعة يقول: حفظت هذه المسألة ولن أنساها أبداً، ولكنه لم يقيّدها! ثم ما هي إلا أيام قليلة حتى ينساها، ويحاول أن يجدها فلا يجدها، وهذه مسألة أيضاً ينبغي لطالب العلم أن يلاحظها. إذا مرت عليك مسألة مهمة، إما قاعدة ما تكاد تجدها في الكتب، أو مسألة؛ فاحفظها وقيدها عندك، ولا تقل: الآن استقرّت في ذهني، ولن أنساها. فإذا قيدتها ترجع لها؛ فاجعل عندك دفتراً، ولابن القيم ـ رحمه الله ـ، كتاب سماه «بدائع الفوائد» لم يؤلفه تأليفاً منسقاً، كان كلما طرأ على ذهنه مسألة كتبها، وابن الجوزي له كتاب اسمه «صيد الخاطر» يقيد فيه ما يرد في خاطره، فهذه أيضاً ينبغي للإنسان أن يلاحظها، فيجعل عنده كتاباً يقيد فيه كل المسائل النادرة التي إذا طلبها الإنسان تعب في وجودها، يقيدها ولو بالخلاصة.

❑ ❑ ❑

وأما الأمور المتأخرة، فإن الله يرشد العاملين إلى ملاحظتها لتقوى هِمَمهم على العمل المثمر للمصالح والخيرات، وهذا كالترغيب المتنوع من الله على أعمال الخير، والترهيب من أفعال الشر بذكر عقوباتها وثمراتها الذميمة؛ فاعرف الفرق بين النظر إلى

العمل الآخر الذي لم يجئ وقته، وبين النظر إلى ثواب العمل الحاضر الذي كلما فترت همّة صاحبه وتأمل ما يترتب عليه من الخيرات استجدّ نشاطه، وقوي عليه، وهانت عليه مشقته؛ كما قال تعالى: ﴿إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾ [النساء: ١٠٤].

التعليق

هذه الآية أيضاً اجعلها على بالك! كل عدوّ لك إذا كنت تعاني منه، فإنه يعاني منك مثلما تعاني منه؛ سواء كان ذلك عدواً بالسلاح، أو بالأفكار، أو بأي شيء. لكن الفرق بين المسلمين وأعدائهم: ﴿وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾، هذا يخفف عنا كثيراً؛ إذا كانوا يألمون كما نألم، فهذا من باب التأسي والتسلي، والثاني إذا كنا نرجو من الله ما لا يرجون، فهذا من باب الترقي، نحن أرقى منهم؛ كما قال المؤمنون لأبي سفيان: «لا سواء؛ قتلانا في الجنة، وقتلاكم في النار»[1].

❑ ❑ ❑

وأما إرشاده من جهة النعم التي على العبد من الله بالنظر إلى ضدّها ليعرف قدرها، ويزداد شكره لله؛ ففي القرآن منه كثير، يذكِّر عباده نعمته عليهم بالدين والإسلام، وما ترتب على ذلك من النِّعم؛ كقوله: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا﴾ [آل عمران: ١٦٤]

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٢٧٨)؛ والطبراني في الكبير (١٠/ ٣٠١)؛ والحاكم في المستدرك (٢/ ٣٢٤) في كتاب التفسير، باب تفسير سورة آل عمران.

إلى قوله: ﴿وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران: ١٦٤]، ﴿وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٣]، **أي: إلى الزيادة لشكر نِعَم الله، وقوله:** ﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [الأنفال: ٢٦]، **وقوله:** ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ **إلى آخر الآيات** [القصص: ٧١]؛ **حيث يذكرهم أن ينظروا إلى ضدّ ما هم فيه من النّعم والخير ليعرفوا قدر ما هم فيه، وهذا الذي أرشد إليه النبيّ ﷺ، حيث قال: «انظروا إلى من هو أسفل منكم، ولا تنظروا إلى من هو فوقكم؛ فإنه أجدر أن لا تزدروا نعمة الله عليكم»**(١)**، وقوله تعالى:** ﴿فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ٦٩]، **وقوله:** ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ﴿٦﴾ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ﴾ **إلى آخرها** [الضحى: ٦ ـ ٨].

(١) أخرجه البخاري في الرقاق، باب لينظر إلى من هو أسفل منه...، حديث رقم (٦٤٩٠) (١١/ ٣٢٢)؛ ومسلم في الزهد والرقاق، حديث رقم (٢٩٦٣) (٤/ ٢٢٧٥).

القاعدة الثانية والأربعون:

في أن الله قد ميَّز في كتابه بين حقه الخاص، وحق رسوله الخاص، والحق المشترك.

الحقوق ثلاثة: حق لله وحده لا يكون لغيره، وهو عبادته وحده لا شريك له بجميع أنواع العبادات. وحق لرسوله ﷺ خاص، وهو: التعزير، والتوقير، والقيام بحقه اللائق، والاقتداء به. وحق مشترك، وهو: الإيمان بالله ورسوله، وطاعة الله ورسوله، ومحبة الله ورسوله، وقد ذكر الله الحقوق الثلاثة في آيات كثيرة من القرآن؛ فأما حقه، فكل آية فيها الأمر بعبادته، وإخلاص العمل له، والترغيب في ذلك، وهذا شيء لا يحصى، وقد جمع الله ذلك في قوله: ﴿لِّتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [الفتح: ٩] فهذا مشترك ﴿وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ﴾ [الفتح: ٩] فهذا خاص بالرسول ﴿وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الفتح: ٩]، فهذا حق لله وحده. وقوله: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ في آياتٍ كثيرة [النساء: ٥٩، المائدة: ٩٢، النور: ٥٤، محمد: ٣٣، التغابن: ١٢]. وكذلك: ﴿ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [النساء: ١٣٦]، وكذلك قوله: ﴿وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ﴾ [التوبة: ٦٢]، وقال تعالى: ﴿سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ﴾ [التوبة: ٥٩] فهذا مشترك ﴿إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ﴾ [التوبة: ٥٩] هذا مختص بالله تعالى.

ولكن ينبغي أن يعرف العبد أن الحق المشترك ليس معناه أن ما لله منه يثبت نظيره من كل وجه لرسوله؛ بل المحبة والإيمان بالله،

والطاعة لله، لا بد أن يصحبها التعبد، والتعظيم لله، والخضوع. وأما المتعلِّق بالرسول من ذلك، فإنه حب في الله، وطاعة لأجل أن من أطاع الرسول فقد أطاع الله؛ بل حق الرسول على أُمته من حق الله تعالى، فيقوم المؤمن به امتثالاً لأمر الله، وعبودية له، وقياماً بحق رسوله، وطاعة له؛ وإنما قيل له: «حق الرسول» لتعلُّقه بالرسول، وإلا فجميع ما أمر الله به وحثَّ عليه من القيام بحقوق رسوله، وحقوق الوالدين، والأقارب وغيرهم، كلّه حق لله تعالى، فيقوم به العبد امتثالاً لأمر الله، وتعبداً له، وقياماً بحق ذي الحق، وإحساناً إليه؛ إلا الرسول، فإن الإحسان منه كله إلى أُمته، فما وصل إليهم خير إلا على يديه ﷺ تسليماً.

التعليق

خلاصة هذه القاعدة: أن الحقوق تنقسم إلى ثلاثة أقسام: حق لله عز وجل، وحق للرسول ﷺ، وحق مشترك. وهناك أيضاً حق رابع، لا لله، ولا للرسول، ولكنه لذوي الحقوق؛ كحق الوالدين والأقارب وما أشبه ذلك. ولكن كلام المؤلف الأخير يدلّنا على أن كل شيء أمر الله به؛ سواء مما يختصّ به، أو مما يكون لخلقه، فهو بالمعنى العام من حقوق الله؛ لأني حينما أبرّ بوالدي فإني أقوم بذلك تعبداً لله، وامتثالاً لأمر الله. كذلك حق النبيّ عليه الصلاة والسلام؛ لولا أن الله أكرمه بالرسالة، وأوجب علينا تصديقه واتّباعه لكان هو رجلاً من قريش. ولكن من أجل الله تبارك وتعالى، صار بهذه المكانة؛ فالإيمان بالله وبرسوله لا يستويان، وإن اتفقا في أصلهما، لكنهما يختلفان؛ الإيمان بالله إيمان بالله لذاته لأنه الربّ،

والإيمان بالرسول ﷺ إيمان به؛ لأن الله أرسله وأمرنا بالإيمان به، فهُما وإن اتفقا في الأصل، لكنهما يختلفان. ومن سفه بعض الناس أنهم يجعلون حق الله متأخراً عن حق الرسول عليه الصلاة والسلام! ويقدّمون حق الرسول ﷺ على حق الله! وما علموا أن تعظيم الرسول من تعظيم الله، وليس تعظيم الله من تعظيم الرسول؛ بل الأمر بالعكس، تعظيم الرسول عليه الصلاة والسلام، من تعظيم الله؛ ولهذا قال الله تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠].

إذاً، هذه القاعدة من قواعد التفسير، وهي أننا إذا تأملنا القرآن وجدنا أن الحقوق التي أثبتها الله تنقسم إلى أربعة أقسان: حق لله، وحق للرسول، وحق مشترك بينهما، وحق رابع لذوي الحقوق.

قال الله تعالى: ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ﴾ [النساء: ٣٦] إلى آخره؛ فقوله: ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ هذا يتضمن حق الله وحق الرسول؛ لأنها لا تكون عبادة إلا باتّباع الرسول عليه الصلاة والسلام. أما ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ﴾ إلى آخره، فهذا من حقوق ذوي الحقوق. قوله تعالى: ﴿لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ﴾ [الفتح: ٩]، كيف عرفنا أن بعضها لله، وبعضها للرسول، وبعضها مشترك؟ لأن ﴿لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ واضح أنه يجب علينا أن نؤمن بالله ورسوله، والاشتراك بينهما ظاهر. ﴿وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ﴾ التعزير والنصرة والتوقير والاحترام للرسول عليه الصلاة والسلام. ﴿وَتُسَبِّحُوهُ﴾ التسبيح لله؛ إذ إننا نعلم بالضرورة من الدين أنه لا يصح أن نقول: سبحان النبي أبداً! بل نقول: سبحان الله، فصار الدليل على أن هذه الحقوق منها مختص ومنها مشترك، إما من نفس الآية، وإما من أدلة أخرى.

القاعدة الثالثة والأربعون:

يأمر الله بالتثبت وعدم العجلة في الأمور التي يُخشى من عواقبها، ويأمر ويحث على المبادرة على أمور الخير التي يُخشى فواتها.

وهذه القاعدة في القرآن كثير، قال تعالى في القسم الأول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ﴾ [النساء: ٩٤]، **وفي قراءة: (فتثبّتوا). وقال تعالى:** ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمَۢا بِجَهَٰلَةٖ﴾ [الحجرات: ٦]، **وقد عاتب الله المتسرِّعين إلى إذاعة الأخبار التي يُخشى من إذاعتها، فقال تعالى:** ﴿وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٞ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُواْ بِهِۦۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْۗ﴾ **الآية** [النساء: ٨٣]، **وقال تعالى:** ﴿بَلْ كَذَّبُواْ بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِۦ﴾ [يونس: ٣٩].

ومن هذا الباب: الأمر بالمشاورة في الأمور، وأخذ الحذر، وألا يقول الإنسان ما لا يعلم، وفي هذا آيات كثيرة.

وأما القسم الثاني، فقوله: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾ **الآيات** [آل عمران: ١٣٣]، ﴿فَٱسْتَبِقُواْ ٱلْخَيْرَٰتِۚ﴾ [البقرة: ١٤٨]، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ﴾ [المؤمنون: ٦١]، ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ﴾ [الواقعة: ١٠]، **أي: السابقون في**

الدنيا إلى الخيرات هم السابقون في الآخرة إلى الجنات والكرامات، والآيات كثيرة في هذا المعنى.

وهذا الذي أرشد الله عباده إليه هو الكمال؛ أن يكونوا حازمين، لا يفوّتون فرص الخيرات، وأن يكونوا متثبِّتين خشية وقوع المكروهات والمضرات ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [المائدة: ٥٠].

التعليق

هذه القاعدة قاعدة مهمة جداً، فالأمور ثلاثة أقسام: ما علمت مضرّته، فالإقدام إليه لا يجوز، لا بالمسارعة ولا بالتأنّي. وما علمت منفعته، فالمبادرة إليه هو الأكمل؛ وجوباً أو تطوعاً، حسب ما تقتضيه الحال، لكن هنا، قد يكون الشيء منفعة في ذاته، ولكن يتردد الإنسان بين كون غيره أنفع منه، أو هو أنفع من غيره. وحينئذ يجب التثبّت والتروي. وخيرٌ في ذاته، لكن يتردد الإنسان بين كون غيره أنفع، أو هو أنفع، فحينئذ يتثبت؛ لأن الإنسان لا يدري أخير هو أم غير خير؟ لا باعتبار ذاته، ولكن باعتبار غيره. إذاً هذا يدخل في القسم الثاني، وهو المشكوك فيه الذي يجب أن نتثبت فيه. فهنا ثلاثة أقسام: قسم علم مضرّته، فلا نُقدم عليه، لا مبادرة ولا تأنياً؛ وقسمٌ آخر علمت منفعته، فنُقدم عليه. وقسمٌ ثالث يتردد فيه الإنسان، ويحتاج إلى تثبّت، فنتثبت فيه قبل أن نُقدم عليه. ويدخل في ذلك ما أشكل علينا بذاته، وما أشكل علينا بمقارنته مع غيره؛ هل هو أنفع أم غيره أنفع؟ ولهذا يقول الشاعر:

قد يدرك المتأنّي بعض حاجته ... وقد يكون مع المستعجل الزّلل

وربما فات قوم جلّ أمرهم مع التأنّي وكان الرأي لو عجلوا

فهنا ذكر الحالين: فالبيت الأول يشير إلى التأني في الأمور، والثاني، مثلاً إذا عنَّ لك أن تقوم بطاعة الله فهنا لا تتأخر، إذا كان الحال تتطلب إزالة مانع من موانع الصلاة ـ مثلاً ـ، فلا تتأخر؛ ولهذا كان الرسول عليه الصلاة والسلام إذا أصابته نجاسة يبادر بإزالتها، أو بالأمر بإزالتها؛ بال عليه صبي في حجره، فدعا بماء فأتبعه إياه[١]، ولم يقل: أنتظر حتى أصل إلى البيت. وبال أعرابي في طائفة المسجد، فأمر بدلو به ماء فأُريق عليه[٢]. والتأخير قد يسبب للإنسان إحراجاً، انظر إلى النبيّ عليه الصلاة والسلام حينما أُقيمت الصلاة ذات مرة وحضر، ولما تقدم ليكبّر، أو كبّر؛ ذكر أنه لم يغتسل، فقال: «**مكانكم**»، ثم ذهب واغتسل، وجاء وصلّى بهم، بعد أن أُقيمت الصلاة[٣]! انظر التأخير كيف يسبب! والنبي عليه الصلاة والسلام يجري عليه مثل هذه الأمور لأجل أن يسنّ الله سبحانه وتعالى لعباده مثل هذه الأحوال.

❑ ❑ ❑

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الوضوء، باب بول الصبيان (٢٢٢)؛ ومسلم في كتاب الطهارة، باب حكم بول الطفل الرضيع وكيفية غسله (٢٨٦).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الأدب، باب قول النبيّ ﷺ: «يسّروا ولا تعسّروا» (٦١٢٨)؛ ومسلم في كتاب الطهارة، باب وجوب غسل البول وغيره من النجاسات إذا حصلت في المسجد (٢٨٤، ٢٨٥).

(٣) أخرجه مسلم في كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب متى يقوم الناس للصلاة (٦٠٥).

القاعدة الرابعة والأربعون:

عند ميلان النفس أو خوف ميلانها إلى ما لا ينبغي يُذكِّرها الله ما يفوتها من الخير وما يحصل لها من الضرر.

وهذا في القرآن كثير، وهو من أنفع الأشياء في حصول الاستقامة؛ لأن الأمر والنهي المجرد لا يكفي أكثر الخلق في كفّهم عما لا ينبغي حتى يُقرن بذلك ما يفوت من المحبوبات التي تزيد أضعافاً مضاعفة على المحبوب الذي يكرهه الله، وتميل إليه النفس، وما يحصل من المكروه المرتب عليه؛ كذلك قوله تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [الأنفال: ٢٨]، فهنا لما ذكر فتنة الأموال والأولاد التي مالت بأكثر الخلق عن الاستقامة قال مذكِّراً لهم ما يفوتهم إن افتتنوا، وما يحصل لهم إن سلموا من الفتنة: ﴿... وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [الأنفال: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾ [النساء: ١٠٩]، وقال تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْءَاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾ [الشورى: ٢٠]، وقال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يُمَتَّعُونَ﴾ [الشعراء: ٢٠٥ ـ ٢٠٧]، والآيات في هذا المعنى الجليل كثيرة جداً. فإذا بان للناظر أصلها وقاعدتها سهل عليه تنزيل كل ما يرد منها على الأصل المتقرر، والله أعلم.

التعليق

يفيد المؤلف ـ رحمه الله ـ، في هذه القاعدة: أن الأوامر والنواهي في حدِّ ذاتها قد لا تكفي في استقامة العبد، لكن إذا ذكر له ما في تنفيذ الأمر من فائدة نشط؛ لأن النفوس مجبولة على حبّ ما يلائمها. وإذا ذكر له في النهي ما يقتضي العقوبة، فإنه يحذر؛ لأن النفوس مجبولة على النفور مما لا يلائمها. وهذا واضح حتى في أوامرك أنت لولدك؛ لو قلت لولدك: افعل كذا! قد يتوانى. لكن إذا أعطيته جائزة، أو قلت: لك جائزة؛ فإنه يقدم. فالله عز وجل أحياناً، إذا ذكر حالاً من الأحوال التي تميل إليها النفوس، وربما تنسى ما يجب عليها من حق الله، ذكّرها؛ فهنا قال: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾، يعني: يفتتن بها الإنسان، وينشغل بها عن طاعة الله سبحانه وتعالى. ولما كان هذا سبباً لميل الإنسان إلى أمواله وأولاده، قال: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾، فلا تقدموا هؤلاء الأولاد والأموال على ما عند الله من الأجر.

وكذلك الآيات التي ذكرها المؤلف ـ رحمه الله ـ: ﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾؛ ولنفرض أنكم نجحتم في ذلك، لكن ﴿فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾، وهذه الآية تنفع في الدنيا وفي الدين أيضاً؛ فنقول لمن جادل بالباطل: لنفرض أنك لبيانك وفصاحتك غلبت صاحب الحق، ولكن هل تغلب الله يوم القيامة؟ لا. وكذلك أيضاً مَنْ دافع عن باطل، وتوكل عن إنسان في قضية مالية يدافع عنه بباطل، فنقول: لنفرض أنك نجحت، وخاصمت خصمك، لكن من يجادل الله يوم القيامة؟ وهذه آية

عظيمة ينبغي للإنسان أن يتذكرها كلما همّت نفسه أن يقوم بمخالفة الله جل وعلا.

وكذلك أيضاً الآية الثالثة، وهي قوله: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا﴾، وهذه الآية أيضاً: ﴿نُؤْتِهِۦ مِنْهَا﴾، مقيدة بآيات أخرى، وهي قوله: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ﴾ [الإسراء: ١٨]. إذاً لا يحصل له كل ما يريد، بل هم مقرّون بمشيئة الله، ولهذا نجد ناساً يسعون للدنيا، وهم لا يريدون إلا الدنيا، ولا ينالون منها شيئاً؛ ولهذا يضرب المثل بفقير النصارى؛ إذا أفلس أحد في شيء من الأشياء، قيل له: أنت مثل فقير النصارى، لا حصّل ديناً ولا دنيا! ومعلوم أن النصارى وغيرهم من الكفار يسعون للدنيا لا للآخرة. ومع ذلك قد يصابون بالفقر المدقع، وبالهلاك، وبالأمراض، وبكل شيء مكتوب في هذه الآية: ﴿وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا﴾ يقيناً. لو نظرنا إلى الآية هذه نفسها لكانت دلالتها يقيناً؛ لأنها جملة شرطية خبرية، والخبر لا يخلف. لكنها مقيدة بقوله: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا﴾ [الإسراء: ١٨].

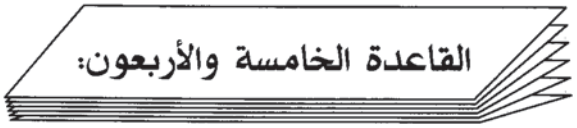

حثّ الباري في كتابه على الصلاح والإصلاح.

هذه القاعدة من أعمِّ القواعد، فإن القرآن يكاد أن يكون كله داخلاً تحتها،...

التعليق

الأفصح أن يقال: يكاد يكون كذا قال الله تعالى: ﴿لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا﴾ [النور: ٤٠]، وقال تعالى: ﴿وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾ [البقرة: ٧١]؛ لا أن يفعلوا. قال ابن مالك:

وكونه بدون أن بعد عسى نزر وكاد الأمر فيه عكسا

❑ ❑ ❑

... فإن الله أمر بالصلاح في آيات متعددة والإصلاح، وأثنى على الصالحين والمصلحين في آيات أُخر.

والصلاح: أن تكون الأمور كلها مستقيمة معتدلة، مقصوداً بها غاياتها الحميدة، فأمر الله بالأعمال الصالحة، وأثنى على الصالحين؛ لأن أعمال الخير تُصلح القلوب والإيمان، وتصلح الدين والدنيا والآخرة، وضدّها فساد هذه الأشياء. وكذلك في آيات متعددة فيها الثناء على المصلحين ما أفسد الناس، والمصلحين بين الناس، والتصالح فيما بين المتنازعين، وأخبر على وجه العموم أن الصلح خير؛ فإصلاح الأمور الفاسدة: السعي في إزالة ما تحتوي عليه من الشرور والضرر العام والخاص.

ومن أهم أنواع الإصلاح: السعي في إصلاح أحوال المسلمين، في إصلاح دينهم ودنياهم؛ كما قال شعيب: ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ﴾ [هود: ٨٨]، فكل ساع في مصلحة دينية أو دنيوية للمسلمين، فإنه مصلح، والله يهديه ويرشده ويسدِّده؛ وكل ساعٍ بضدّ ذلك فهو مفسد، والله لا يصلح عمل المفسدين.

التعليق

من الآيات في الثناء على المصلحين: ﴿وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٠]، وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾﴾ [هود: ١١٧]. ففي الآية الأولى بيّن الله جزاءهم، وفي الآية الثانية بيّن الله تعالى ما ارتفع عنهم من العذاب بسبب الإصلاح. وانتبه لهذا الشرط: ﴿وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾، ولم يقل: وأهلها صالحون! إذاً، فالصلاح في الأُمة بدون إصلاح لا يضمن ارتفاع الهلاك عنهم، بل لا بدّ أن يكونوا مصلحين، آمرين بالمعروف، ناهين عن المنكر، مع صلاح أنفسهم. أما الإصلاح بين الناس؛ فكقوله: ﴿لَّا خَيْرَ فِى كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍۭ بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ [النساء: ١١٤]، وكذلك قوله: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ﴾ [النساء: ١٢٨]، وقال تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا﴾ [الحجرات: ٩].

❑ ❑ ❑

ومن أهم ما يكون أيضاً: السعي في الصلح بين المتنازعين، كما أمر الله بذلك في الدماء، والأموال، والحقوق بين الزوجين، والواجب أن يصلح بالعدل، ويسلك كل طريق توصل إلى الملائمة بين المتنازعين، فإن آثار الصلح بركة وخير وصلاح، حتى إن الله تعالى أمر المسلمين إذا جنح الكفار الحربيون إلى المسالمة والمصالحة؛ أن يوافقوهم على ذلك متوكِّلين على الله.

وأمثلة هذه القاعدة لا تنحصر، وحقيقتها: السعي في الكمال الممكن حسب القدرة بتحصيل المصالح أو تكميلها، أو إزالة المفاسد والمضار أو تقليلها؛ الكلية والجزئية، المتعدِّية والقاصرة، والله أعلم.

التعليق

إذا جنح الكفار إلى المسالمة، فقد قال الله تعالى: ﴿وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [الأنفال: ٦١]، وهذا في حال ضعف المسلمين. وأما في حال القدرة والقوة، فإن الواجب مقاتلة الكفار ﴿حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾ [التوبة: ٢٩]. أو يسلموا، فإن أسلموا فذاك، وإلا بدله الجزية؛ فإن أبوا وجب علينا قتالهم إصلاحاً لهم؛ لأن غيرهم إذا رآهم قد قوتلوا من أجل كفرهم، ربما يُسلمون؛ فيكون في ذلك خير. ونحن إذا قاتلناهم، لا نقول لهم: ادخلوا في ديننا لأنه ديننا، ولكن نقول: ادخلوا في ديننا لأنه ديننا ودينكم وواجب عليكم أن يكون هذا دينكم؛ لأنه دين الله، وأنتم عباد الله، فكان هذا الدين واجب علينا وعليكم، لكن أنتم خرجتم منه، فنريد أن نردّكم إليه. ولهذا قال شعيب: ﴿قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا

﴿إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فِيهَا﴾ [الأعراف: ٨٩]؛ فالإنسان يجب أن يبيِّن لهؤلاء الكفار أننا لا نقاتلهم تعصباً لدينٍ نحن عليه في مقابل دينهم الذي هم عليه، لكننا نقاتلهم ليدخلوا في دين هو لنا ولهم، مفروضٌ علينا وعليهم؛ لأنه دين الله الذي خلقهم، وأمرنا بقتالهم حتى يدخلوا في دين الله، أو يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون. والإنسان الحرّ لا يرضى لنفسه أن يعطي الجزية عن يد وهو صاغر، فيكون في هذا عذاب نفسي يوجب لهم في النهاية أن يُسلموا.

الخلاصة: أن هذه القاعدة فيها إشارة إلى فائدة الصلح، وإلى فائدة الإصلاح، وأن الإنسان عليه أن يكون صالحاً لنفسه ساعياً في إصلاح غيره؛ هذا أولاً. وثانياً: عليه أن يصلح بين المسلمين ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، وهذا خلاف طريق النمام ـ والعياذ بالله ـ الذي يسعى بين الناس في الإفساد والفرقة، وربما يخلق أشياء لم يكن لها أصل، ربما يأتي إلى شخص ويقول: قال فيك فلان: كذا، وقال فيك فلان: كذا، وهو لم يقل! لكن ليفرّق بينهم.

وأشد من ذلك ما يسلكه بعض الناس الظلمة ـ والعياذ بالله ـ الذين هم في الحقيقة من أعداء الإسلام؛ أولئك الذين يَشُون بين العلماء بعضهم مع بعض، ويأتون إلى فلان يقولون: أرأيت فلاناً ماذا قال! قال هذا الكلام المنكر. وربما يقول: قال فيك كذا وكذا، وهو لم يقل، كل هذه الأُمور التي هي إفساد وليست إصلاحاً. وهؤلاء الذين يشون بين أهل العلم، ويوقعون بينهم العداوة والبغضاء، والأخذ والرد في أمور يسع المسلمين الخلاف فيها لكونها أموراً اجتهادية، مبنية على الاجتهاد، هؤلاء في الحقيقة من

أعداء المسلمين، هم يظنون أنهم مُصلحون، وهم مفسدون؛ لأن إضعاف جانب حَمَلة الشرع هو إضعاف لجانب الشرع، فإذا أضعفنا حَمَلة الشرع، وجعلناهم خصماء فيما بينهم؛ فمعنى ذلك أننا أضعفنا الشرع كله، وصار الناس لا يثقون بأحد؛ كلما أراد أحد أن يحتج بقولِ عالمٍ من علماء المسلمين قالوا: لكن انظر ماذا قال، تكلم فيه فلان، وانظر ماذا أحدث، وانظر ردّ فلان عليه، وهذا لا شك أنه أمرٌ منكر، وأن هذا من وحي الشيطان لهؤلاء الأغرار، الذين نعتبرهم صغار العقول، وسفهاء الأحلام.

فالواجب على المسلمين إذا رأوا تصدّعاً بينهم، ولا سيما بين علمائهم، أن يقوموا بالإصلاح، ورأب الصدع، وجمع الكلمة، حتى يكون الناس أُمة واحدة؛ كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ [الأنبياء: ٩٢]. وأنتم أيها الشباب، عليكم إذا رأيتم مثل هؤلاء المفسدين أن تحذّروا الناس منهم، ومن طريقهم، وتبيّنوا أن هؤلاء من أشدّ الناس ضرراً؛ ليس على الشخص الذي يهاجمونه فحسب، ولكن على المسلمين وعلى الإسلام، أَمَّا هم فقد ضلّ سعيهم، وهم يحسبون أنهم يُحسنون صنعاً، والعياذ بالله.

فالواجب علينا أن نصلح ما استطعنا. ومع ذلك، فإنه يجب علينا أن نقول كلمة الحق، ويمكن إظهار كلمة الحق بأن يقول الإنسان الحق بدون أن يتعرض للطعن في شخص معين. فلا يلزم أن نطعن في شخص، بل إذا قال الإنسان الحق، وبيّنه بأدلته النقلية والعقلية، عرف الناس فساد ضدّه، وبقيت الأمور ليس فيها تحزّب، وليس فيها تكتل، وليس فيها: «أنت مع فلان، وأنا مع فلان»؛ كما هو حادث في بعض البلدان، نسأل الله السلامة والعافية.

القاعدة السادسة والأربعون:

ما أمر الله به في كتابه: إما أن يوجَّه إلى من لم يدخل فيه، فهذا أمر له بالدخول فيه. وإما أن يوجَّه لمن دخل فيه، فهذا أمره به ليصحح ما وُجد منه، ويسعى في تكميل ما لم يوجد منه.

التعليق

هذه القاعدة مهمة: إذا وجّه الخطاب بشيء إلى شخص لم يتّصف به، فهو أمر بفعله وإيجاده؛ مثل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ﴾ [البقرة: ٢١]؛ فليس كل الناس عابدين لله، فيكون الخطاب هنا موجّهاً حتى إلى الكفار، فيكون أمراً بفعل هذا الشيء. أما إذا وجه الأمر إلى من تلبس به واتصف به، فهو أمر بتحقيقه، وتكميل ما نقص منه؛ كقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ﴾ [النساء: ١٣٦] وما أشبه ذلك. وهذه القاعدة مهمة؛ لأنه أحياناً يرد على الإنسان: كيف يقول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ﴾ وهو يأتي بشعائر الإسلام كلها؟ فيكون أمراً بإتمام ما نقص منه، وإكمال ما كان موجوداً منه.

❑ ❑ ❑

وهذه القاعدة مطردة في جميع الأوامر القرآنية؛ أصولها وفروعها، فقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ ءَامِنُواْ بِمَا نَزَّلْنَا﴾